أسباب التطرف: صحة التشخيص نصف الحل

يكثر البحث في الآونة الاخيرة في ظاهرة التطرف المذهبي وتشخيص اسبابها ، حيث قد نخطىء او نصيب او نبالغ في تاثير اسباب او نقلل من اهمية اسباب اخرى.

واذا كان التشخيص الصحيح والدقيق لتلك الاسباب مدخلا اساسيا لعلاجها،فلا بد من الوقوف عند اكثر من كلام، يتحدث في وجود ظاهرة لدى المسلمين الشيعة، تتمثل في شتم الصحابة وامهات المؤمنين..

يأتي مقال الأستاذ محمد السماك، المنشور في صحيفة السفير بتاريخ 2014/12/6 بعنوان «رفسنجنة إيران» في هذا السياق الذي ذكرنا، مع توجيه كامل الشكر له على الهم الذي يحمل، والجهد الذي يبذل،في إطار العلاقات الإسلامية – الإسلامية.

لكن تصحيحا لتلك المقاربة وما فيها، وحتى لا تتحول الى مسلمات ،لا بد من إيراد العديد من الملاحظات.

1. ليس من الصحيح نسبة الشتم إلى المسلمين الشيعة – العرب وغيرهم – سواء على مستوى المعتقد المذهبي، أو على مستوى الممارسة المجتمعية. لأن الشتم ممارسة غير أخلاقية بينما ما هو موجود لدى المسلمين الشيعة هو نقد لبعض ما حصل في التاريخ الاسلامي ،او تخطئة لبعض المواقف او السياسات التي اتبعت، وحتى هذا الجدل ينبغي الامساك عنه، عندما يصبح مدخلاً للفتنة او سبباً لتسعير العصبيات المذهبية، لكن فرق بين الشتم والنقد ،او بين السب والتخطئة.
2. نعم، قد تجد ممارسات أو تصرفات تصدر عن أفراد من المسلمين الشيعة، لا تعبر لا عن المعتقد الإسلامي الشيعي، ولا عن واقع المجتمعات الشيعية، حتى لو كان بعض هؤلاء ممن ينتحل صفة عالم دين، أو حمل اسمه ولبس لباسه، اذ إن جميع علماء الدين الشيعة – وخصوصاً مراجع الدين منهم – يحرمون هذه الإساءات ويدينونها، ويعملون على مواجهتها ووضع حدّ لها، فضلاً عن أن المجتمعات الشيعية ترفضها ولا تتقبلها.
3. السؤال هل يصح تحميل تلك الإساءات إلى جميع المسلمين الشيعة، أو إلى مذهبهم ومعتقدهم، أي لو كان هناك أفراد يسيئون – لجهل أو طيش أو غيره –

إلى المذاهب الأُخرى ومعتقداتهم . وهم بذلك يسئيون إلى التشيع نفسه . فهل يصح القول عندها بأن الشيعة يسيئون أو يشتمون..؟

لو سمحنا لأنفسنا بطرح سؤال معاكس، أي لو كان هناك أفراد أو أكثر من الطائفة السنية الكريمة ،يكفرون أو يشتمون أو يقتلون أو يذبحون أو ...هل يصح تحميل هذا الأمر للطائفة الإسلامية السنية، والقول بأن اهل السنة يفعلون كذا وكذا...؟

الجواب في الحالتين هو بالنفي.

4. أليس في هذا التحميل تشويه لواقع المسلمين الشيعة، ولحقيقة معتقدهم؟ ألا يمكن أن يسهم هذا التشويه – شئنا أم أبينا – في رفد التبريرات التي يتمسك بها التكفيريون، لممارسة جرائمهم وإرهابهم بحق المسلمين الشيعة وغيرهم؟ ألا يعمد هؤلاء إلى استغلال أي تصرف مسيئ، حتى لو صدر من مراهق أو سفيه.. لتبرير جرائمهم، وتحميله لجميع المسلمين الشيعة؟

5. هل يصح تضخيم تلك الإساءات، وهل من الحكمة بمكان العمل على المبالغة في توصيفها ،إلى حد اعتبارها ظاهرة؟ ألا يمكن أن يؤدّي هذا الأمر إلى زيادة استغلال المتطرفين الإرهابيين لهذا الأمر، لارتكاب جرائمهم ومذابحم؟ اذ انه فرق كبير في اللوازم والمترتبات، بين أن نقول بأنه يوجد أفراد قليلون من العوام أو السفهة، مرفوضون ومحاصرون، لا يعبرون عن المعتقد الشيعي ولا عن المجتمع الشيعي، وبين أن نقول بأنه توجد ظاهرة في هذا المجتمع الشيعي او ذاك.

6. إذا كان التشخيص الصحيح للمشكلة هو نصف الحل، فهل الصحيح تصوير المشكلة وتقديمها ،على أنها تكمن إلى حدٍّ بعيد لدى أفراد من السنة أو الشيعة، تصدر عنهم تصرفات قولية مسيئة بحق المذاهب الأُخرى ومعتقداتها؟

لا أُقلِّل من خطورة هذه التصرفات ،ومن أهمية العمل على ادانتها ومواجهتها ومواجهة كل الذين يقومون بها؛ لكن ماذا عن مجمل الأسباب الجوهرية التي تكمن في التراث، ومناهج التعليم،والخطاب الديني، والإعلام ،والسياسة ،والمجتمع

والثقافة ،والتربية... حيث هناك من يقتل، ويدعو إلى ذبح الآخر، لمجرد الاختلاف في الدين أو المعتقد أوالمذهب، بل حتى لأدنى اختلاف في الرأي.

7. ليس دفاعاً عن إيران ولا غيرها، والمجتمع الإيراني ليس استثناء مما نقول ، لكن هذه الـ «رفسنجنة» موجودة الى حد بعيد في الفكر الإيراني ومناهج التعليم والخطاب الديني والسياسي.. لكن ماذا عن الـ «رفسنجنة» في العديد من الدول العربية وغيرها، في مناهج التعليم لديها، ومنتوجها الثقافي، وإعلامها، وخطابها الديني، وسياساتها الداخلية تجاه اتباع المذاهب الأخرى ،وعلاقاتها و...

إن ما صدر من قبل العديد من كبار القادة والمسؤولين في إيران، يدل على إرادة جدية وصلبة في تصحيح العلاقات الإسلامية . الإسلامية وتنقيتها من الشوائب، فهل سيحصل أن تقابل هذه الإرادة بإرادة مقابلة من كبار الملوك والزعماء العرب، تعبر عن نفسها بشيء من النقد الذاتي الجريء، كما حصل في إيران؟

أخيراً لا بد من القول إن مواجهة التطرف المذهبي تحتاج إلى مشروع متكامل، يتداخل فيه الديني مع السياسي والتعليمي والتربوي والإعلامي والقانوني والاجتماعي والفكري..

فنحن نحتاج إلى تنقية التراث الديني من رسوباته التكفيرية، وإلى تطهير بعض العلوم الدينية من الفقه العنصري بل الإجرامي، الذي يدعو إلى قتل الآخر لمجرد الاختلاف الديني أو المذهبي، وإلى إقفال فضائيات الفتنة المذهبية، وضبط الخطاب الإعلامي ومراقبته، وإلى إعادة بناء مناهج التعليم، بعد تصفيتها من كل تلك الثقافة العنصرية والإلغائية تجاه الآخر المذهبي وغيره، والى تصحيح السياسات المتبعة تجاه الآخر المذهبي.

ونحن نحتاج إلى تعزيز ثقافة الحوار والتعايش والقبول بالآخر، وتنمية ثقافة الاختلاف كما جاءت في النص الديني نفسه. وإلى استحداث قوانين تجرم التحريض المذهبي وأي عمل يصب في إطار الفتنة الدينية والمذهبية، والتطبيق الفاعل للقوانين الموجودة في هذا الإطار.

نحن نحتاج إلى ضبط أي إنتاج فكري، لمنع نشر ثقافة الفتنة والعنف المذهبي والإرهاب والقتل والإجرام. وإلى تصحيح الخطاب الديني، بما يخدم الوحدة الوطنية والإسلامية والعلاقات الصحيحة والصحية بين الطوائف والمذاهب..